ما ذا استفدنا من الحرب؟

الثقافة المغربية - العدد الأول - غشت 1941

قد يكون مثل هذا السؤال غريبا، فما اعتاد الناس أن يغنموا من كل حرب إلا موتا زؤاما بجانب خراب فظيع وإلا ألما في الجسم وجوعا في البطن؛ فإذا تصورت الحرب في أذهان الجماعات ارتسمت أمام مخيلتها هاته الأشباح المخيفة من الويل والثبور وهاته الصور التي تحز النفس هما وتذرف العين دمعا.

ولكن الحرب مهما كانت قاسية، ومهما كانت نتائجها مؤلمة، ونارها سعيرة، فإنها حدث في التاريخ يسجل ليسجل دوما بجانبه انقلاب من انقلابات الحياة؛ فإذا تجردنا عن مؤثرات الساعة وفواجع الحاضر، ونظرنا إلى الحرب كما ينظر إليها المؤرخ الاجتماعي وقد أبعده الزمان عن كوارثها وأحاطه بهدوء لا ينعم به من يتلظى بسعيرها، رأينا للحرب بجانب شؤمها خيرا دفينا لا يكشف عنه إلا بعد أن تخمد الجودة، وتستقر الأحوال، وتستأنف الحياة الناعمة طريقها.

ولعل أبرز ما تقدمه الحرب للأمة من خير هذا الانقلاب الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي الذي يطرأ عليها ليجدد حيويتها، ويدفع بها إلى العمل، ويبعدها من هوة الدعة التي تسقط فيها كل أمة أرادت أن تستريح من الجهاد المتواصل.

فلولا الحرب العالمية الماضية لم تكن هناك يقظة للأمم العربية؛ فلقد دفعت تلك الحرب الضروس مصر وسوريا والعراق وغيرها إلى السعي وراء الحياة الجديدة، سواء من ناحية اجتماعية حيث أقبل الشعب على التزود بعدد معنوية جديدة، أو من ناحياة اقتصادية حيث أخذ البناؤون يدعمون صرح اقتصاديات بلادهم بعد أن ابتلعتها معامل الخارج، أو

من ناحية سياسية حيث سعى الأحرار في تنظيم شؤون الأمة وتقوية دواليب إدارتها.

وإذا كانت الحرب لم تنته بعد، بل لا زال لهيبها يزداد كل يوم تطاولا، وسعيرها كل ساعة احمرارا، فإنه يستحيل أن نزن شرورها المفجعة هذه بخير قد يأتي للبشرية منها بعد أن تنهك قواها وتخر صريعة أمام أشد الأهوال وأفجع الكوارث.

إذن قد يكون من الهراء الآن السعي في تصوير خير الحرب الحاضرة للحياة البشرية المقبلة، فلن يقوى أحد أن يتبصر هذا الخير في وسط يتأجج نارا، بل لا يريد أحد أن يسمع نبأ هذا الخير قبل أن يسمع ختام هذه المأساة البشرية الكبرى.

ولكن المغرب بلد من البلدان التي لم تمسها هاته الحرب العالمية بالرغم عن قربها من فوهة البركان، وبالرغم عن موقعها بين بحرين بلغ فيهما الصراع أشده؛ وليس من شأن الحرب التي تندلع نارها إلى أمم عديدة أن لا تؤثر في تلك الأمم، بل إن تأثير الحرب يصل في أغلب الأزمان إلى الأمم التي لم تحارب، والتي تخضب أرضها بالدماء، ويتجلى ذلك التأثير في العصر الحاضر أقوى تجل حيث قويت أسباب المواصلات بين الأمم، وتضاعفت وسائل التبادل الاقتصادي، وازدادت حاجات الأمم إلى بعضها بعضا؛ فإذا توقف النشاط المدني في أمة، وانكبت على النشاط الحربي وحده، لم يؤثر ذلك في مجريات أحوالها فحسب، بل وفي مجريات جاراتها القريبات والبعيدات عنها أيضا؛ فإن التبادل الاقتصادي الدولي يضعف، ووسائل المواصلات تقل، ولكل ذلك نتائج سرعان ما تظهر في مجموع كل أمة من الأمم.

والمغرب وإن لم تجرفه الدماء في هاته الحرب ولم يخرب عمرانه، فقد قل إيراد ما يلزمه للحياة الجديدة من أسباب ووسائل أولا بسبب الحرب، وانعدم بسبب الحصار أخيرا؛ فدخل المغرب بذلك في طور جديد من الحياة يجب أن يكون له نتائج، وأن يتساءل من الآن عما استفدناه من الحرب، ما دامت لم تجر دماؤها في ترابه، فيصبح من العسير البحث عما جنيناه من الحرب.

يظهر أنه لا طمع، إذا لم نكو بنار الحرب في أرضنا، في انقلاب اجتماعي مهم؛ فصفات التأخر التي استولت على الفرد منا وعلى العائلة في وسطنا وعلى الأمة في مجموعها لم يقو تأثير الحرب غير المباشر أن يهد من ركنها، ولا أن يتغلب على عواملها من نفوسنا، فبقينا كما كنا نأخذ الحياة من جانبها اللين ونعيش في صورة القرون الوسطى لا نبغي عنها بديلا.

فإذا انتهت الحرب كما بدأت بعيدة عنا سلمنا من أخطارها، ولكن لم نسلم من أخطارنا الدفينة في نفوسنا.

أما من الناحية الاقتصادية فقد اضطرنا الحصار أن ننظر إليها من جديد، وعلى ضوء جديد؛ فقلت المنتوجات الصناعية العصرية في البلاد، وارتفع ثمنها، وغدت الرفاهية من تلك المنتوجات لا تصل إلا على يد الأغنياء منا، وبعد قليل قد يستهلك المذخر منها فتنعدم حتى لدى الأغنياء؛ فهل يعني أن هذه القلة الموجودة الآن وهذا الانعدام المنتظر في الغد أن يدرك أفراد الشعب المغربي أنه يمكن الاستغناء عن كثير مما يجلب إلينا من الخارج إذ أن أغلب ما يحمل إلينا هو مواد رفاهية نستهلكه دون استحقاق ما دمنا لا نستطيع أن ننتجه.

في يقيني أن المغرب لم يدرك شيئا من ذلك بعد، إذ في الساعة التي تدق معلنة ختام هذه المأساة البشرية يسرع المغاربة إلى استجلاب المواد من الخارج وإلى استهلاكها بشره أفظع من الماضي.

ذلك لأننا لا نفكر في بناء نهضة اقتصادية على أساليب جديدة يمكنها أن تستفيد من الظروف الراهنة للحرب فتسد حاجاتنا من المنتوجات العصرية، بل كان ما فعل رجال الاقتصاد منا أن استغلوا الاحتكار، واكتفوا بربحه، وها هم يخلدون إلى الراحة المميتة لا يفكرون في تكوين صناعة، ولا تدعيم معمل، ولا تأسيس شركة.

ولعل الناحية الوحيدة التي نتجت عن ظروف الحرب الآن هى ناحية سيئة؛ فلقد أدى

الاحتكار إلى اختلال توازن بين طبقات الأمة، إذ انعدمت الطبقة الوسطى؛ فلقد تجمع ما كانت تذخره من مال قليل لدى طائفة قليلة من التجار الكبار، فاستغنوا بينما أفقرت تلك الطبقة الوسطى وحشرت في الطبقة الفقيرة.

ولعلنا إذا نظرنا نظرة واحدة على ما تستفيده الأمم من كل حرب تدخلها أو تتأثر بها تأثرا غير مباشر، ونظرنا نظرة أخرى إلى الأمة المغربية التي لا تقل عن تلك الأمم اهتماما بالحروب وتتبعا لأخبارها وتعليقا على تطوراتها، نجد أن الجمود الذي قيد كل نشاط في حياتنا لم تقو الحرب أن تضعف ولو قليلا من شدته.

فإذا استفادت الأمم الأخرى من الحروب فتطورت حياتها وقوت نواحي الضعف فيها وتنبهت إلى أدوائها فحاولت أن تعالجها، فإن المغرب في عصره الحاضر يأبى إلا أن يقف دوما وقفة المتفرج الكسول، فإذا الحوادث تتوالى بسرعة، وإذا الأيام تلد في كل مناسبة جديدا، فمن انقلاب اجتماعي إلى حركة سياسية، ومن نهضة اقتصادية إلى تجديد صناعي، بينما المغربي يصم آذانه، ويقف من كل ذلك قنوعا بما يتيسر لديه من وسائل العيش الوضيع وأسباب الحياة اللينة.

وستطلع شمس يوم فإذا هذه الحرب الضروس قد انتهت، وإذا كل الأمم تسارع إلى إعادة تكوينها من جديد بأساليب جديدة ومقومات جديدة، وإذا المغرب حيث هو، وإذا المغاربة حيث هم، كتب عليهم الجمود حتى في ظروف الحركة وأيام النشاط غير العادي.